EŞKAR, Ü., “Gazze Örneğinde Savaş ve Afetlerde Topluma Sebat Kazandırmaya Dönük İçerik ve Kavramlar”
Diyanet Arapça İlmî Dergi; 6 (2024): 136-160
Araştırma notu / Research note

GAZZE ÖRNEĞİNDE SAVAŞ VE AFETLERDE TOPLUMA SEBAT KAZANDIRMAYA DÖNÜK İÇERİK VE KAVRAMLAR

OSAMA JUMA‘A MAHMOUD AL-ASHQAR*
DOÇ. DR.
HARTUM ÜNİVERSİTESİ

ÖZ Bu makalenin temel amacı Gazzeli Müslümanlar örneğinde toplumların zor zamanlarda sabır ve sebatlarının arkasında yatan sebepleri ortaya koymaktır. Bu bağlamda öncelikle insanların özellikle zor zamanlarda kendisine şiddetle ihtiyaç duyduğu “sebât” ve “sabır” gibi Kur’an’ı Kerîm’in bu konudaki temel kavramları tahlil edilmiş, bu kavramların ihtiva ettiği derin manaların insanın hayatında tecelli etmesi halinde, Aksa Tufanı’nda olduğu gibi mucizelerin gerçekleşeceği ifade edilmiştir. Filistinli Müslümanlar, insanlıktan hiçbir şekilde nasibini almamış gözü dönmüş düşmanları tarafından üzerlerine yağan bombalar karşısında; mukavemet, fedakârlık ve sabrın en güzel örneklerini sergilemişlerdir. Yaşanılan acı tasavvurların ötesindedir. Hamile kadınların çocuklarını doğuracak güvenli bir yer bulamadığı, şehit düşen insanların parçalanmış cesetlerini gömmek için bile olsa saldırıların kesilmediği ve cesetlerin yırtıcı hayvanların merhametine bırakıldığı bir durumla karşı karşıyayız. Ancak bütün bunlar karşısında bile oradaki Müslümanların teslimiyetlerinden bir şey kaybetmediğini, ağızlarından inançlarına aykırı tek bir kelimenin dahi çıktığına şahit olmuyoruz. Makale, sebât göstermenin, insanları, işlerini Allah’a havalet etmek ve ona tevekkül etmekten daha üst düzey bir eğitim metodu olduğunu ortaya koyarak, tevekkülün ise mücerret bir sûfî teorisinden ibaret olmadığını, tam tersine kişinin, hak uğruna veya insanlık adına ya da dini ve dünyası için inandığı ve hayatında izlediği değerlerle sığındığı bir kale olduğunu izah ederek tamamlanmıştır.

Anahtar Kelimeler: Gazze – Aksa Tufanı – Sebat – Sabır – Tevekkül.

* ORCID: 0000-0001-8805-2849 | mudeerpic@gmail.com
Geliş/Received 31.03.2024 – Kabul/Accepted 24.05.2024

الأشقر، أ.، "مضامين تثبيت المجتمع في الحروب والكوارث -قطاع غزة أنموذجًا-"
المجلة العلمية لرئاسة الشؤون الدينية التركية؛ 6 (2024): 136-160
المذكرة البحثية

مضامين تثبيت المجتمع في الحروب والكوارث -قطاع غزة أنموذجًا-

أسامة جمعة محمود الأشقر
الأستاذ المشارك
جامعة الخرطوم

الملخص

هدف هذا البحث إظهار مضامين تثبيت المجتمعات في الحالات العصيبة على نموذج قطاع غزة. تناول البحث أوّلًا بعض المفردات القرآنية، مثل الثبات والصبر والمعاني الأخرى المتضامّة معه، ممّا تشتد الحاجة إليها في حياة المرء والمجتمع، ولاسيما في مواسم النوازل والكوارث، وذكر أن مضامين تلك المفاهيم إذا تحققت وتجلّت تتحقق معها المعجزات، مثل ما رأى العالم بعد طوفان الأقصى ممّا ضربه الفلسطينيون من أروع أمثلة المقاومة والتضحية والفداء والمصابرة وهم في أشد حالة، حيث يتنزّل عليهم البلاء في كل لحظة على يد وحشيين لا يعرفون شيئًا من القيم الإنسانية، فالغزّيُّون لا يجدون مكانًا تلد فيه نساؤهم، وينتظرون خفّة النار ليجمعوا الأشلاء الممزّعة لأهاليهم من بين الأنقاض ليواروها في قبور جماعية يردمونها بحجارة الأنقاض حتى لا تنبشها الكلاب، ومع ذلك كله لا نجد أحدًا منهم يتذمّر فيما يواجهه، ولم نشاهد أنّه تفوّه أحدهم بكلام يخالف إيمانه. وصل البحث إلى أن التثبيت أعظم من تربية الناس على تفويض الأمر لله وشدة التوكّل عليه، فالتوكّل ليس مثالًا نظريًّا ولا تجريدًا صوفيًّا، بل هو حال يلجأ إليه المرء في أثناء انغماسه بأمرٍ يؤمن به، ويجعله مدار حياته السلوكيّة في شأن الحقّ أو الخلق أو النفس أو قيامة الدين والدنيا.

الكلمات المفتاحية: غزّة - طوفان الأقصى - الثّبات - الصّبر - التوكّل.

المدخل

طالما كان الثبات من الألفاظ الكثيرة الاستعمال التي يُؤتَى بها في سياق السرد الوعظيّ، لكن هذا المصطلح الحسّاس المهمّ لم يحظَ باهتمام معرفيّ نستطلع فيه مفاهيمه، ونتبيّن فروعه، ونستوضح تطبيقاته، ونستظهر فيه تنزيلات مضامينه. ورغم شيوع استعماله في الخطب والمنابر فإن أكثر حضوره يكون مع كلمات أخرى تحمل تعبيرات مترادفة معنويًّا، وكأنها تشترك معها في تقاطعات معنوية تتقارب معها وتتعاقب في دلالاتها. وإذا تتبّعنا أصل دلالة الثبات في المعجم اللغوي فسنجد أنها تدور حول التماسك البدنيّ والعقليّ والنفسيّ حتى يقومَ هذا المعنى بالشخص، ويصير موصوفًا به.[1] وهذه الدلالة اللغوية الوضعية هي عين الدلالة الاستعمالية إلى اليوم، وهذا يدل على رسوخ معنى هذه الكلمة من بدايات تكوينها ونشأتها إلى اليوم، رغم كل التطورات التي تصيب أكثر المفردات اللغوية.

وقد كان الشائع في تنزيل معنى الثبات هو الحديث التحليليّ عن مفاهيم الثبات العامة الواردة في نصوص الكتاب والسنّة، وغالبًا ما تكون مفردة الثبات مقترنة بالصبر،[2] إلا أن مصطلح الصبر أكثر شيوعًا وحضورًا واستعمالًا في التعريف والشرح والاستدلال من الثبات؛ وثمة مصطلحات قريبة الدلالة من دلالة الثبات نجدها في مواد الألفاظ القرآنية مثل الرسوخ والبركة والرباط والتربّص والإرساء والركوز والقرار والوقوف والقيام وهلمّ جرًّا. وقد وجدنا أن مضامين الثبات المقترنة بالصبر والمعاني الأخرى المتضامّة معه تُعَدّ ممّا تشتد الحاجة إليها في حياة المرء والمجتمع، ولاسيما في مواسم النوازل والكوارث والفتن والمصائب والمحن، وقد أسهمت هذه المضامين كثيرًا في تثبيت الفلسطينيين في قطاع غزة في أثناء حرب طوفان الأقصى التي بدأت منذ السابع من أكتوبر عام 2023م، ولا تزال مستمرّة، حيث ضرب فيها الفلسطينيون أروع أمثلة المقاومة والتضحية والفداء والمصابرة، وكانت رسائل التثبيت التي نبثّها من منابر مختلفة زادًا يعين الدعاة وأولياء الأمور في جهودهم لتأمين رَوعات الناس وخَوفاتهم، ولكن عظم الكارثة وفداحة الخطب كادت أن تزعزع نفوس الحاضنة الفلسطينية الصامدة، وامتد اليأس إلى قلوبهم بعد تعرّضهم لخذلان شديد لم يتوقّعوه، وتَعَامٍ شديد من العالم القريب والبعيد، وتعرضهم لوحشية علنيّة لم يشهد التاريخ مثلها بهذا الوضوح.

---

[1] انظر: **الصحاح** للجوهري، «ثبت»، 245/1.

[2] انظر على سبيل المثال: البقرة، 250/2؛ الأنفال، 45/9؛ النحل، 94/15.

وقد ظهر لي أن الصبر لا يعني انتظارَ أمرٍ حَسنٍ يغيّر حالَك إلى حال أفضل بعد مدة من الزمن؛ بل الصبر يعني قدرة النفسِ الثابتةِ على امتصاص قوة الصدمة المفاجئة عند هجوم المصيبة وحرارتها، وهذا مصداق الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»،[3] فلا أعترض على أقدار الله، ولا أتسخّط على قضائه، وأعلم أنها وقعت بعلم الله وإذنه، وأحبس جوارحي عن التشويش، فلا تطيش يدي ولا قدمي، ولا أمزّق ثيابي، ولا أشدّ شعري؛ وقد وجدت أن الصبر في حقيقته هو الثبات، ويكون بحبسِ النفس عن الجَزع، وامتصاصِ الصدمة بأقل مظاهر التأثر كالدموع، ورفع قدرة التحمّل لديك إلى مستوى يفوق قدرتك المعتادة، وإصرارِك على مواصلَة حياتك بدون تغيير، رغم ما يحيط بك من ظروف صعبة.

ولو يعلم الناس ما في الصبر لجرّبوا كل سبيل موصل إليه، وقد ذكره الله في أكثر من سبعين موضعًا من كتابه، وجعل أجره مفتوحًا بلا حساب،[4] وقد كان بعض الأساتذة يراجعني في أنني عندما أحدّث الناس وأثبّتهم فإن كلامي يختلف، فهم يتلقّون عنّي البشارة، وتفاؤل الإشارة تارةً، ويتلقّون عني تعقيدات الواقع وصعوبة السير بين ألغام الواقع، فشرحتُ لهم أنّ حديثنا مع عموم الناس يكون بتثبيتهم، وشحنهم بالقدرة على التحمّل، وغرس التصبّر فيهم وفيمن حولهم، وذلك بحفز الجانب الإيمانيّ الغيبيّ فيهم؛ بتذكيرهم بالسنن الإلهية وطبائعها وعواقب الأشياء ومصائرها، وإرشادهم إلى المسارات العامة التي أمرنا الله باتباعها إذا وقعت؛ لتكون عاقبتها خيرًا لنا؛ وأمّا إن كنّا بين العارفين والعاملين فإن حديثنا يكون في السنن الإلهية التي تعمل وفق منهج فهم الحوادث ومسبباتها ومآلاتها وسنّتها التي يسوّي فيها الله سبحانه بين الشيء وبين نظيره، ويحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، وبيّن فيها سنن التداول والمدافعة، وهي سنة تعمل على انتفاء الموانع وتحقيق الشروط اللازمة لفتح الأسباب بضمّها إلى بعضها والتنسيق بينها؛ لأن المسبَّبات مرتبطة بأسبابها، ولا سبيل للقفز عنها في التقدير الماديّ غالبًا؛ ولكنِ حديثنا للخاصّة يستتبعه حديثَنا الأول عن السنن الإلهية باستصحاب معيّة الله وقدرته، وأثر بركته ودعائه، وأمره بالعدل ونهيه عن الظلم وعقوبته لكل من ظلم وطغى... وأنّ الأسباب، وإن كانت تؤدي إلى مسببات، فإن إرادة الله أو مشيئته هي التي خلقت الأسباب، وجعلت فيها القدرة

---

[3] روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي؟ فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة»، أو قال: «عند أول الصدمة». انظر: **صحيح البخاري**، «جنائز»، 31؛ **صحيح مسلم**، «جنائز»، 14.

[4] انظر: البقرة، 153/2؛ هود، 11/10؛ الزمر، 10/39.

على إحداث الآثار الناتجة عنها، وهو يعرف أقدار هذه الأسباب وأدوارها، وهو المتحكّم في نتائجها، ولولا أنّ الله أمرنا بالأخذ بالأسباب واستصحابها لتركنا الأمر كله له، ولمَا عملنا شيئًا في تدبيرها، ولكنه يبتلينا ابتلاءَ من يحبّه؛ لنكون جديرين بعظيم جزائه.

ولقد حامت بنا الحُتوف، وضاقت بنا الأحوال والظروف، ولم ينسدل علينا الأمان، لكثرة ما حصدوا من أرواحنا وانتقصوا من أنفسنا وأولادنا وثمراتنا ومَرافقنا؛ وإننا نعلم أنّ أقدار الله غير مدفوعة، ولا يغيّرها زيادة عدد، ولا قلّة مدد، ولا قوّة أيْد، ولا شدّة كيد. ونحن نعلم أن سواعدنا ما قصّرت، وأن خيولنا ما استراحت، وأن عزائمنا ما خارت، وأن قلوبنا ما جبُنت، وأنّ صبرنا ثابتٌ على رباطة جأشٍ، وفضل بأسٍ، وصحّة تدبيرٍ؛ وأنّ ما مضى في تلك الأيام الطوال كان بلاء وتمحيصًا لكم، وأنّ ما سيأتي يكون عقوبةً ونَكالًا لهم، وبأسًا شديدًا بينهم وعليهم؛ وأنّ النصر لم يتأخّر، وإنما لم يحضر وقتُه المقدور له، وأن الله يستدرج الظالمين ويمهلهم حتى يبلغ الكتابُ أجلَه، وتستوفي السننُ شروطَها، ولم يكن لأمر أن يمضي دون إمضاء الله له، ولم تكن لنفسٍ أن تبقى لم يُرد الله لها البقاء؛ وأنّهم يألمون كما تألمون، وأنّ القرح بجراحاته العميقة وآلامه المُمِضّة قد مسّهم كما مسّنا، وأنّ الجزعَ سيَلْبَسهم، والفجيعةَ ستُدركهم، وانظروا كيف قدّم الله في الآية المفعول به» القومَ» على الفاعل «قرحٌ»، وما في ذلك من تأكيد على عمق وقوع القرح فيهم، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.[5] فقد ناوب ربُّنا علينا في المصائب والمواهب والمَسارّ والمَضارّ؛ ليشفي صدورنا، وليمحّص ما في قلوبنا؛ وقد صدقكم اللهُ وعدَه إذ تحسّونهم بإذنه، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. وأنّكم بين ظنّين! فلم تظنّوا ولم يظنّوا، فما ظننتم أن يخرجوا! وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله! فارتقبوا موعود الله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.[6]

1- استصحاب معيّة الله من المثبّتات

في إحدى المرات كتب لي أحد الدعاة في قطاع غزة حزينًا مُستيئسًا: لم يَبْقَ إلا أن يبعث الله جنده لنصرتنا، فقد ضاقت، واستحكمت، وما نستطيع بعد ذلك مبلغًا! فكتبت له مستدعيًا فقه الثبات: إن هذا زمان استصحاب معيّة الله، واستدعاء اليقين، وحسن الظنّ النابع من الإيمان العميق المتجرِّد لله وحده، وهو

[5] آل عمران، 140/3.
[6] الحشر، 2/59.

استصحابٌ يُزاوِج بين النجاح بالإعداد والتوفيق بالمعيّة، ويضع الأمر بين يدي الله وحده اعتقادًا يقينًا؛ وقد فطِنتُ أن ربَّنا سبحانه يقول: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾[7] فقد فرَق اللهُ تعالى البحر «بهم»، ولم يقل «لهم»، وجعل عصا موسى سببًا له وأداةً، وهذا يعني أن أولياء الله هم أسبابه لتحقيق النصر والتغيير، ومن عادى وليًّا له فقد آذَنه بالحرب، إذ يكون لهم سمعًا وبصرًا وبطشًا وإحاطةً[8] بتدبيره الحكيم، وإننا نحسب أنّكم أنتم جند الله المكلّفون وعسكرُه المأمورون، وأنتم ظلُّ نصرِه، ومدَدُ غِياثه، وأَمارةُ غضبِه، وشديدُ انتقامِه. ونرجو أن تكونوا أنتم وعدَ الله المفعولَ، وعبادَه الجوّاسين الطوّافين أولو بأسه الشديد، فأنتم الجُدَراء بهذه الجنديّة بما أعددتم، ودخلتم عليهم الباب! وإن الله يعلم أنّ الأمر قد فاق وسعَكم، وقد أجمعوا كيدهم، واستعلَوا، وأتوكم صفًّا، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولكن الله يدبّر أقداره العظيمة ببلاء عظيم قد يستفرغ الوسع، وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم. وما أدراكم أنّ الإشارة قد أتت بأنّ الله قد هيّأكم بهذا الطوفان الأعظم لأمر عظيم تبدؤونه بأنفسكم وأهليكم وأموالكم، وتضعون عتبتَه بفِدائكم، وجعل لكم العوض العظيم عنده، أو أن الله يريد أن يحقّ الحق بكلماته، ويبطل الباطل، ويقطع دابر الكافرين بكم!

وهذا البلاء العظيم بكل ما فيه من فتنة هو سبيلُ هذا الوعد وباعثُه، فتشبّثوا بعُود الصبر ما استطعتم حتى ينكسر عود عدوّكم بكم، فهذا هو الخلاص الوحيد لكم، والنجاة لمن يكون بعدكم. هذا وإنكم الأعلون الظاهرين القاهرين إن شاء الله، فألقُوا ما في يمينكم عليهم بما توفّر لكم حتى تذهب وَفْرتكم، وتنقضي نُدرتكم، وتُبلّغوا حجّتكم! واعلموا أنّ ما صنعوا مثل كيد ساحر، ولا يُفلِح الساحر حيث أتى، ولن يضرّكم من خذلكم أو خالفكم، فإنّ معكم الناصر القهّار الذي يجازي عباده بقدر ما قدّموا، واكتسبوا، واستحقّوا! فلما وصلته رسالتي وجدتُ أنّها قد أثّرت فيه بالغ التأثير، وبات يبعثها إلى رفاقه، ووجد فيه العزاء

---

[7] البقرة، 50/2.

[8] إشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه من النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». انظر: **صحيح البخاري**، «الرقاق»، 38.

والتسلّي، فصرتُ أبعث إليه بين الفينة والأخرى أمثال هذه الرسائل التي تستدعي التثبيت في هذه الحرب الطاحنة.

وكتبت إلى أحد الأصدقاء في غزّة رسالة أخرى جعلتُ عنوانها: «معيّةُ الله جَيشُكَ»، فكانت له بلسمًا وعزاءً، ولاسيّما أن فيها مدخلًا للتصبّر والثبات لم يكن يفطن إليه، قلت: إنني لم أكلّم واحدًا من أصحابي هناك إلا كان الوجعُ أول حديثه، ثم تراه يتصبّر متعزّيًا، فكنتُ أظلّ صامتًا أمام جلالة وجعه، إذ لا أجد كلماتي تتسع لكل هذا اليأس الحزين الذي كتّفه وجعله يتكفّف الناس طلبًا لإطعام أهله، وهو العزيز الكريم؛ وقد انتبه أحدهم مرّة عندما قلت له: ألم تعْلم مقالة الله لعباده: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[9] فالله يسمع ويرى ما يحلّ بنا، وإنّه سيدلّنا على ما يخرجنا من إدراك العدوّ لنا: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[10] ولا بدّ أن الله الذي معنا سيهدينا ويدلّنا ويرشدنا، وأخبرته كيف خرج رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه طريدًا مهاجرًا يبحث عنه قومه ليقتلوه، فيقول لصاحبه وهو مختبئ عن عيونهم في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.[11] وقلت له: لا يمكن لأحدنا أن يشعر بالمعية الإلهية وهو يعيش كل هذا القلق، وهو الذي يفتح أبواب الظنون على قلبه المكسور، ويكابد هذه الهموم والغموم مما فات ومما سيأتي، فهذا مرضٌ نفسيّ فتّاك سيدمّر أرواحنا.

هذا وإنّ أكثر ما يحتاج إليه الناس الآن -يا أخي- هو السكينة، وطمأنينة القلب، وسلامة الروح، إنّهم يريدون الابتسامة الصابرة، والثقة المطلقة بالله، يريدون كلمة تقطع بقيّة رجائهم بالناس الذين خذلوهم، ويتجرّد رجاؤهم لله رب العالمين. إنهم بحاجة إلى فكرة نفسيّة مريحة تتسلل إلى قلوبهم المنفطرة المكدودة التي كاد العمى يصيبها، فلا يكادون يرون منها بصيص أمل بين كل هذا الركام العالي المظلم من الموت والدم والدمار والخذلان والتيه والضياع. وإن الناس بحاجة لمن ينقلهم إلى عتبة الشعور بمعيّة الربّ الحامي الحافظ القويّ الغنيّ الكريم الجبّار القهّار، فلا يبالون بإدراك العدوّ لهم، ولا يحزنون على فقدٍ، ولا يبكون على حالٍ، ولا يجتمعون على مصيبة، ولا يأسون على فَوتٍ، ويكفيهم ما أصابهم من عذاب البدن وعذاب النفس. إن ربهم معهم حقًّا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[12] لكنهم يحتاجون إلى الإيمان بذلك، ويحتاجون إلى من يهديهم إلى هذا الإيمان، ويعلّمهم كيف يشعرون به.

---

[9] طه، 46/20.
[10] الشعراء، 62/26.
[11] التوبة، 40/10.
[12] الحديد، 4/57.

معيّة الله هي سبيلنا للخلاص، هي تدريب عالٍ للنفس في هذه الظروف القاسية، وهي الوحيدة القادرة على ترميم النفوس المكسورة بعد كل هذا العذاب. إنّ معية الله هي شعورك بقدرته المحيطة، فيمنحك ذلك القدرة على فعل كل ما تظنّ أنك عاجز عن بلوغه، ويمنحك الشعور بأنّك أقوى وأقدر على التحكم في حالك ومصيرك، من خلال الصبر على حكم الله وقضائه، وأن الله هو من يدبّر أمره لعباده المتقين المحسنين الصابرين، وتثبت على هذا المعنى، وتُربّي شعورك به، وتنميه. وقد علِمنا أن بعضهم تجرّد في هذا المعنى حتى شعر بلذّة المعية، وجنى بعض ثمرتها، وأدرك معنى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[13] فكان لا يبادر إلى شيء إلا سهّله الله له، وأناله إياه على قدر.

إنها مسألة إيمان يا أخي، فإن جميع مقاييس هذه الحرب -منذ أن اندلعت- لا تمتّ إلى عالم المادة وتقاليد نظامها، بل حساباتها تعتمد على إصابة التوفيق، واستحقاق بركة الله، ورماية الله المسدّدة، وظاهرٌ جدًّا أنّ مَن اندفع بها يريد أن يصل بغايتها إلى رضوان الله، فتراهم التزموا أمر ربّهم، فأعَدوّا لعدوّهم فائق القوّة المستطاعة، ودخلوا عليه الباب، وأتَوه من مأمَنهم، من حيث لم يحتسبوا، واستشعروا كلمات ربّهم الذي تولّى أمر إخراج العدوّ ونسبه إلى نفسه، واعتبروا بذلك غاية الاعتبار، باستبصارٍ إيمانيّ متين: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾،[14] وقد توكّلوا على الله غاية التوكّل، وأحسنوا الظنّ بربّهم، واحتسبوا كل أمرهم لله، إذ يعلمون أنّه لا يؤمن أحدهم حتى يكون قائدُهم رسولُ الله -صلوات ربي وسلامه عليه- أحبّ إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم والناس أجمعين؛ وقد صبروا على قتال مرير، لا مجال للمقارنة فيه منذ بضعة أشهر في حرب عجيبة، لم يتكرّر مثلها من قبلُ، تتجدّد فيها آيات الله في عظيم آثارها، وهم يرجون اللهَ كما لم يرجوه من قبلُ؛ وعلى هذا فلا ينبغي لهم أن يتردّدوا لحظةً في صدق قرارهم ورشاده إن شاء الله، ولا ينبغي لهم أن يستيئسوا من تأخّر الفتح، فقد أضحى قرارهم الجريء هذا مسألة إيمانٍ عندهم، وهم في غمرة البلاء الشديد الآن، ويدبّر الله أقدارَه بما يثبّتهم، ويجعل لهم فيه جَبْرًا ولُطفًا وعوضًا وفرجًا وفتحًا، فارتقِبوا فإن سنن الله تنفتح بتدرّجها ومساراتها التي قدّرها الله وقضاها.

[13] الطور، 48/52.

[14] الحشر، 2/59.

وقد كاتَبني أحدُ المكلومين أيضًا: ألا ترى أنّك تكتب عن الثبات وتباشير النصر، بينما لا يجد أحدنا مكانًا لتلد فيه امرأته، وننتظر خفّة النار لنجمع بعض الأشلاء الممزّعة لأهلنا من بين الأنقاض لنواريها في قبور جماعية نردمها بحجارة الأنقاض حتى لا تنبشها الكلاب؟! فكتبت له: إنّ أوجاع الناس هناك أشدّ من أن تُوصَف، وذهولهم يزلزل الراسخين منهم، والرهق المستديم قد أصاب الناس بصورةِ عجزٍ لا توصف، وكلمات قهرٍ لا تنتهي ولا تعبِّر، حتى إننا من البعد نكاد ننهار ممّا تكشف بعضه عيون الإعلام، وقد كنّا نكتب لعامّة الناس أنّ المنتظر ييأس إذا طال انتظاره، والمتربّص ييأس إذا لم يدرك مبتغاه، والمستعجل الذي لم يدرك غايته ييأس، والمقيم في على حاله ييأس، فكيف بهذا البلاء المقيم الذي لم يهدأ ساعةً على أهلنا في القطاع، وربما ستتسلّل منهم في أثناء متابعتكم لهم كلمات قاسية مشوبة بالكثير من الخيبة والاكتئاب، ومشحونة بالكثير من الغضب والاتهام، ولن يفوتكم -وأنتم تسمعون كلماتهم- سماع أصوات الزنّانات التي لا ينقطع تَحْوامها فوق رؤوسهم، تمزّق كل فرصة للشعور بلحظة أمن تسكّن روعاتهم.

كثيرون أصابهم اليأس، وانقطع رجاؤهم، وفقدت الحياة معناها مع شيوع اليأس في عيونهم، وعقم الرجاء لديهم، فتراهم كالزهاد من شدّة ما غرس اليأس في قلوبهم من انقطاع الأمل، وانتفاء الطمع في حصوله، وأصبح رجاؤهم أن يسمعوا إشاعة هدوء يستريح فيه شقاؤهم، ولو كان بعد دهر؛ ليُعلِّلوا به صغارهم؛ ويبلغ اليأس تمامه بطول البلاء، وتوطُّن المكاره، ووقوع القنوط من قرب إدراك رحمة الله، وظنّوا بالله الظنون، وفقدوا القدرة على التصبّر، وانعدمت لديهم معاني العزاء، واعتقدوا في نفوسهم استحالة الفرَج القريب، وانعدام فرص النجاة؛ وهذا اليأس داء فتّاك بالنفس، يضيّق عليها، ويخنقها، حتى ينعدم فيها الشعور بالمسؤولية، ويرتمي في مراتع اللامبالاة كالمجنون؛ ويشتدّ اليأس بما يرونه من خيبة الخذلان وانعدام النصرة، رغم استباحة الدماء والأعراض وكل هذا الدمار المزلزِل، فيثقل الخطبُ أكثر على المرء فيَعمَى، ولا يكاد يَبِين له الطريق، فتراه يائسًا مخذولًا خارت قواه، وانكسرت همّته، واستبدّت به مشاعر العزلة، واجتاله سيئات الظنون، واستفحل فيه الداءُ وأعضَلَ، وقتله الأسف، ومات خاطرُه ؛ وهذا الحال إذا وصل إليه المرء فإنه على مفترق طريق: فإما أن يستمر في قنوطه، ويتسخّط ويظلّ في جزعه، ولن يجد في ذلك عزاءً سوى الغضب الذي يأكله وعدم وصول الطمأنينة إلى قلبه، وإما أن يجد في ذلك سبيل الأنبياء وسبيل أولئك الذين إذا اشتدّ حبّ الله لهم زاد بلاؤهم؛ ليمحّصهم

ويميز الخبيث من الطيب منهم؛ لأنه أراد لهم درجة عالية في جنته، ورفعة عالية في دنياه.

2- اليأس يصيب المؤمنين أيضًا

وعندما نتحدث عن آفة اليأس الاجتماعية القاتلة هذه فإننا لا نطعن في المجتمع الحديديّ الذي صمد كل هذه الشهور على كل هذا الدمار، فمَثَلُهم كمثل الأنبياء الذين استيأسوا من الخذلان، ويئسوا من النصر غاية اليأس، وقد عبّر عنه القرآن بوصف «استيأسوا» وكأنّ الرسل طلبوا هذا اليأس، واستحضروه لمّا ضاقت عليهم السبل، وأغمضت عليهم المفارج، واشتدّ الكرب، ليعذروا أنفسهم أمام ربّهم؛ وفي تلك اللحظات القانطة يخبرنا الله أنّه لم يتركنا، ولم يُخلِف ظنّنا فيه، وأنّ نصره قد جاء بتلك اللحظة الفارقة التي هي فوق قدرتهم على التحمّل، يقول ربّنا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛[15] وقد علِمنا أن هذا البلاء العظيم مقرون بالتعظيم لمن اختارهم الله لهذا القضاء المقدور، وأن العزّ والرخاء مقرون بالجهد والبلاء، وكأنّ اليأس والإبلاس وعموم المصيبة حافزٌ على المصابرة الجماعيّة، وأنّ تعجيل اليأس هو أحد اليُسْرين وإحدى الراحتين، وأكمل الظَّفرين، ولهذا ينجّي الله من يشاء من هذا البلاء المخصوص؛ ليكونوا أقوى وأقدر على مواجهة ما سيأتي بعده؛ لخصوصيّة ما اختارهم إليه فيه؛ وذلك أنّ لليأس جرأةً على النضال والمواجهة أشدّ من هجمة الأمل؛ لأن اليأس هنا حرّيّة تجرّدت من الاحتياج إلى أحد، والأمل أمنيّة تعيش بانتظار الرجاء؛ ولطالما كان استفحال اليأس مربّيًا محترفًا في معسكر الإعداد العنيف؛ لأنّه يدفع بالمرء إلى المرمَى في آخر حدوده، وخيرُ اللقاء ما كان بعد اليأس من حصوله؛ ومن هنا جاء التوجيه الإلهي بألّا يقنط المؤمن من رحمة الله مهما تأخرت واستبطأت، وأن النجاة قدرٌ محتومٌ في عاقبة الأمر، وأن عقوبة المجرمين نافذة وبأسه الشديد غير مردود، وأن البلاء في سياق الابتلاء هو في حقيقته إعدادٌ للتغيير الكبير، ونحن على سُنّة الأنبياء في هذا البلاء كما ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[16] فأخذهم الله؛ ومن شواهد ذلك الفقه ما ورد في الأثر: «إذا أَحَبَّ اللّه عبدًا ابْتَلاهُ، وإذا أحبَّه الحبَّ البالغ اقْتَناه، لا يترك له مالًا ولا ولدًا».[17] ومعنى اقتناه: اتخذه واصطفاه، ولهذا قال سفيان الثوري رحمه الله (ت. 161هـ/778م): «لم يفقه عندنا مَن لم يعدّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة». وقال الإمام العُتبيّ

---

[15] يوسف، 110/12.

[16] المؤمن، 85/40.

[17] انظر لما في معناه: **شعب الإيمان** للبيهقي، 236/12.

القرطبيّ (ت. 255هـ/869م): «إذا تناهى الغمُّ انقطع الدمعُ، بدليل أنك لا ترى مضروبًا بالسياط ولا مُقدَّمًا لضرب العنق يبكي»؛ وتيقّن أنّ الله سبحانه إذا سلك بك طريق البلاء فقد سلك بك طريق الأنبياء، فاثبت ولا تقنط من رحمة الله، ولا تيأسنّ من الرجاء بالفَرَج الكبير الذي يُنسيك كل هذا الألم العميق، وترضيك عاقبتُه.

وقد شكا لي أحدهم مرة أنّه فقد أكثر عائلته، وبقي وحيدًا، وكاد عقله يطيش لولا أنْ كتبتُ له كلمات أعادت إليه بعض وعيه، كتبت له: ولكلِّ مصيبةٍ نازلةٍ عمرٌ معدودٌ، وأجلٌ محدود، فهي -مهما كبرت- سينقضي عمرها، وتكون كبيرةً عليك أوّل وقوعها، ثم ما تزال تصغر في عينك وفؤادك، وتتضاءل حتى تزول، وتختفي آثارها، وتندمل جراحُها، وتصبح ذكرى بخيرها وشرّها، وتجربة شاهدةً تُروَى، ويُوعَظ بها؛ وقد أفلح فيها مَن احتسبها لله، وحاصر نيرانها بالصبر الجميل، وأطفأ حريقها بالتوكل والاحتساب، وأزال آثارها بالأمل وحسن الظنّ بالله؛ وقد علِمنا أنّ الصبر عَقّار مُرّ لا يتجرّعه إلا حُرّ، وأنتم بقيّة الأحرار الذين تذوّقتم إكسيرَه في هذا الزمان، وما فضّلكم الله بهذا إلا تبريكًا منه واختيارًا وحكمةً، لأمرٍ جليلٍ يريده الله من اتّخاذكم على هذا المقام الذي صرتم إليه؛ وليس ثمة حارسٌ للأعمار إلا الأجَل الذي كتبه الله، وكفى بالأجَل حارسًا؛ وإذا كان الله قد كتب علينا البلاء فإنه قد أخبرنا أنّ ما يصيبنا هو ما كتبه لنا؛ ونحن نعلم أنّه جلّ وعزّ لا يرضى الخزي لأوليائه بهذا البلاء، فهو مولانا الذي عليه توكّلنا؛ فقوموا يرحمكم الله، فإننا متربِّصون إحدى الحُسنَيين.

وقد شكا لي آخر فقال: ألا ترى أن بيوتنا قد تهدّمت، وأموالنا قد أُخِذت، وأراضينا قد تعطّلت! فقلت له: فكيف إذا أورثكم الله ديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطؤوها، وجعل لكم مكان بيوتكم بيوتهم، وردّ أراضيهم إليكم، وجعل أموالهم في أياديكم، وكان الله على كلّ شيء قديرًا! أحسِن الظنّ بربّك، واسعَ إليه بكل وسعك، وانظر إلى عجائب قدرته وجميل تعويضه، وكريم فضله؟!

3- من نماذج التثبيت

ولم أجدْ نموذجًا في التثبيت أعظم من تربية الناس على تفويض الأمر لله، وشدة التوكل عليه. التوكل ليس مثالًا نظريًّا، ولا تجريدًا صوفيًّا، بل هو حال يلجأ إليه المرء في أثناء انغماسه بأمرٍ يؤمن به، ويجعله مدار حياته السلوكيّة في شأن الحقّ أو الخلق أو النفس أوٍ قيامة الدين والدنيا. والتوكّل في حقيقته إيمانٌ نوعيّ مستقرّ ينعقد في القلب، ويظهر في السلوك كنمط فعليّ مستديم، وهو جوهرٌ عميقٌ لا يقوم بالكلام والادّعاء ولا الإدراك المعرفيّ، فلا ترى

متوكّلًا يقول عن نفسه: إنه متوكّل أو بدأ يتوكّل! وانعقاد حال التوكّل في أهل الفداء والقتال من أسباب النصر العظيمة التي يعين الله بها عباده المؤمنين، ويمنحهم فيها بركته، ويُظهر لهم منها قدرته وإجابته. وتوكّلك يعني أنّك على حقّ مبين، وأنّك أصبحت جديرًا بأنْ تكون على مثال موكّلٍ مكلّفٍ بأداء أمر إلهيّ مخصوص يريده الله الوكيل ويأمر به عباده، ويتكفّل الله بإنفاذه وتحقيقه بانخراطك في مسار الوكالة منه.

وينعقد مبدأ التوكّل بأن تجعل غايتك وهدفك ومرادك في سياق أمر الله ومراده حتى يكون مرادك هو مراد الله في اعتقادك الجازم. وحينما تستشعر أن الله –سبحانه- قد أعطاك الإذن في وكالة منه وفوّضك فيها، فهذا يعني أنّك جارٍ على مراد الله أولًا، وأنّك عارفٌ بحدوده ثانيًا، وأنّك تجهّزتَ له بفائق القوة المستطاعة التي أمرك الله بها: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم﴾[18] ثالثًا، حتى لا تكون محتاجًا إليهم في مسيرة التوكل، وأما رابعًا فهو أنّك ستمضي في هذا الأمر إلى النهاية من دون نظر إلى مَن حولك وما حولك، وأن تعتقد بأنّه ليس ثمّة إلا الله في مسعاك هذا، فهو الذي بيده مقاليد كل شيء، وهو صاحب التصرّف المطلق، وبه الثقة الكاملة، وعليه الاعتماد المطلق!

وهذا يعني أن يقطع المتوكّل قلبه وعقله عن التعلق بالخلق وبالأسباب رغم شدّة الاحتياج إلى عون الناس وغوثهم، ولا يفتّش المرء حال التوكّل في ماضيه ولا يعيش في تبعاته، ولا يقلق من مستقبله؛ لأنه ترك كل شيء فيه لربّه بعد أن تجرّد له بكلّيته. والمتوكلون أهل ذوق وعرفان ومَدَد، أرضاهم الله وكفَاهم، حتى إنهم لا يعرفون معنى الخيبة، ولا يصيبهم الإحباط، ولا يتدلّى إليهم الخوف، ولا يكادون يشعرون بالزمان والمكان في غمرة انغماسهم بما يعملون فيه، حتى إنّ منامهم يكاد يكون لهم وقت عبادةٍ يهديهم الله إليه.

والمتوكلون أمّة منصورة بلا ريب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.[19] والمتوكّلون لا يبالون إن ساندهم الناس أو تركوهم، ولا يسألون عن ذلك ولا يهتمّون، فيصطنع الله لهم أعوانًا محبّين من غيرهم يعملون على مراد الله الذي جعلوه مرادهم، فتكتمل بهم دائرة التوكل العظيم.

ومن وسائل التثبيت أن نعلّم الناس مبادئ التفاؤل وحسن الظن بالله، وأنّ ما قد أصابنا الله به من شدّة عظيمة قدّرها، فإننا نعلم أنه –تعالى- لا يريد بعباده شرًّا محضًا، بل هو يهيّئهم لأمر رشد، ويفتح لهم به بابًا مستورًا فيه صلاحٌ ولطفٌ

[18] الأنفال، 60/9.
[19] الطلاق، 3/65.

وفرَج وشفاء وفتح؛ وأنّه لطالما كنا نجهل عواقب الأمور مهما اجتهدنا في رسم مساراتها المتوقعة. وتدبير الله لا يراعي تدبيرنا، ولا يقيس على حذرنا وحرصنا، ولا يجري على رغائبنا ومكارهنا، ولله مصالح في مكاره عباده؛ وأنّه قد يشقّ علينا قضاء الله في الحال، فيكون فتحًا ونصرًا في الاستقبال، فيشفي به صدور المؤمنين، ويُذهب غيظ قلوبهم؛ وأن الله قد أخبرنا أنه يجعل فيما نكرهه خيرًا، وأكّد ذلك بأنْ جعله كثيرًا فقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُوا۟ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾،[20] وجزم بأنّ فيه الخير المخصوص لنا فقال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُوا۟ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾؛[21] كما وعدنا بأن اليسر مقرون بالعسر الواقع علينا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [سورة الانشراح، 94/5-6]،[22] ولن يغلب عسرٌ يسرين، وكثيرًا ما دخلت المَسرّة من باب المَضرّة، وتأتي المنافع من مداخل الموانع، ويأتي الدواء من الداء؛ وقد علمنا أنه إذا اشتد الأمر هان، وأنَّ الشدَّةَ إذا تتابَعَتْ انفرجَتْ، وإذا توالَتْ تولّت، ففوّضوا أمركم الله، فهو يعلم وأنتم لا تعلمون!

وقد يستأخر الناس النصر، ويقولون: متى نصر الله؟ ويسأل النادبون منهم: هل تأخّر النصر... أو أنّنا مستعجلون؟! فكنّا نخبرهم أنّه قد سبق للمؤمنين قبلكم أنْ شكَوا إلى رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه ظلم قريش في مكة وشدة عذابها لهم، وظنّوا أن رسول الله تأخر في دعائه المستجاب لهم، ولم يطلب النصر من ربّه، فتغيّر لونه من فهمهم لا من سؤالهم، وبيّن لهم بحسم قاطع أن النصر مقرون بالبلاء العظيم الذي يأخذ مداه، لكنه واقعٌ محقق لا شكّ فيه ولا ارتياب: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض فيُجعَل فيه، فيُجاء بالمِنشار فيُوضع على رأسه فيُشَقّ باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليَتِمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»؛[23] والنصر المراد في الآيات والنصوص لا يعني الغلبة والظفر، بل هو من مقتضياته، لأن أصل معنى النصر هو الإعانة، والنصرةُ حُسنُ المعونة، والاستنصار هو استمداد المعونة، فنصر الله هو عونُه لعباده وغوثُه لهم، فهل ترون أن نصر الله قد حلّ بأولئك المقاتلين وحاضنتهم بهذا الثبات الذي ترونه في غزة، وهذا الصمود العجيب، وهذه المبادأة الإستراتيجيّة التي قلَبت معادلة الصراع، وأسّست لعهد جديد؛ وأحسب

---

[20] النساء، 4/19.
[21] البقرة، 2/216.
[22] الانشراح، 94/5-6.
[23] **صحيح البخاري**، «مناقب»، 25؛ **سنن أبي داود**، «الجهاد»، 106.

أنّه نصرٌ نوعيّ مخصوص بأهل غزّة، وأنّهم على عتبة عالية من معارج نصر الله أو أنّهم يتهيّؤون له، وأمّا غيرُهم ممن لم يسعَ جهده، ولم يُعِدّ استطاعته، ولم يشتبك، فهم عن النصر مُبعَدون، حتى يُسهموا فيه.

وقد يتباطأ النصر لأنه مربوط بأحوالنا المشتركة مجتمعين -فنحن حالة واحدة متضامّة- لتمييز الصفوف المحسوبة علينا وتجليتها، وإظهار النفيس والخسيس في المواقف المستورة، وإعطاء الفرصة لبقيّة الخير فيمن تأخر في النصرة لينضمّ إلى الركب، ويصحّح المسار، ويعدّل المواقف التي لا تليق بحقيقته وجوهر التزامه. والنصر قدرٌ من أقدار الله، وتدبير من تدابيره، وهو يجري وفق سنّة إلهية مقدّرة، لا وفق حسابات أحدٍ أو تمنّياته أو تخطيطه وإعداده.

وقد يظنّ بعضهم أن النصر قد تأخر عن غزّة، وما درَى أن النصر إن تأخّر حقًّا فقد تأخر عنّا نحن جميعًا؛ لأن فلسطين هي مفتاح تحرّرنا، ومعيار استحقاقنا لنصر الله، وقد استحقّ نفرٌ منا الجزاء العظيم من ربّهم على ما قدّموه من فائق القوة المستطاعة في ثغر غزة الأشمّ، لكن هذه الأمة لم تثُرْ معهم، ولم تتحرك كما ينبغي لها أن تفعل بما أمرها الله، ولم تصدم العدوَّ صدمة رجلٍ واحدٍ كما قال الفاروق عمر في وصيته لعمرو بن العاص يوم أن تأخّر عليه فتح الإسكندرية، فلم تستحقّ هذه الأمّة منّا أن تشمّ ريح النصر الآن أو أن تستثمره ببركة الله، أو أنّ ربّنا سبحانه قد مدّ لهم في الفرصة!

وقد يتأخر النصر؛ لأنّ الأمّة لم تبذل ما يكفي لإثبات جدارتها به، فهذا النصر المنتظَر ليس نصرًا لجماعة أو حزب أو دولة، بل هو نصر لأمّة من عباد الله، وقد تكون الأمّة المتخلّفة سببًا في تأخّر نصر الطليعة المستحقّ، فأصلِحوا أنفسكم، وراجِعوا ما تأخّرتم فيه؛ لعلّ الله يعجّل في جَبْرنا وإمدادنا! وكثيرًا ما يظنّ الناس أن أطراف المعركة هما الفريقان المتقاتلان، وأن النصر مرتبط بغلبة أحدهم على لآخر بظهور كاسح أو موازنة النقاط، ولكنّ الحقيقة أن كلّ فريق هو طليعة لأمّة وحضارة، وأنّ ختامَ مشاهد النصر أو الهزيمة مرتبط بظهور الطرف العميق واستعداده لتسلّم راية النصر أو البناء على لحظة الحقيقة الفارقة.

والنصر أمر عظيم لا يناله إلا مستحقّه، ولا يستقر إلا في بيئة صالحة لإنباته والبناء عليه وصيانته، وإذا لم يتهيّأ الناسُ لهذا الاستحقاق ويُناسبوه فقد يكون النصر خصمًا عليهم وكَسرًا، وقد يفقدونه، وينقلب عليهم هزيمةً منكرة تطيل نكبتهم وتزيدها قساوة، ويكون المُصابُ فيه أفدحَ ممّا كان. وإذا ارتابت النخبة القائدة في تحقُّق نصر الله وقُرب ميقاته وإمداده، واستبعدت حدوثه، وركّبت الحسابات فيه، وربطته بأطراف وحبال موهومة فقد وقعت في التشكيك

والاعتراض، وتأخر عليها نزوله. وقد يتأخر النصر؛ لأن صورته لم تكتمل بعدُ في مسار البلاء العظيم، وذلك عندما يكون الشرّ عظيمًا متمكّنًا، فإن النصر عليه يأخذ كل وقته وأسبابه، ويتدرّج النصر، حتى نرى في عدوّنا العوج والانكسار.

وقد يتأخر النصر إذا أعجبتنا أنفسنا وأفعالُنا، ولم نتواضع لله الذي وفقنا في سبيل نصرته، ولم نتواضع لعباده من رفقائنا الذين نافسونا في السبيل إليه، وطمعوا أن يكونوا من السابقين السابقين، واجتهدوا في ذلك، ولم يكتبها الله لهم لبُعدهم عن محلّها أو عجزهم عن خوضها بما يعلمه الله مِن حالهم. وهذا النصر حقٌّ كائنٌ، وهو داخلٌ في مسائل الاعتقاد الغيبيّ، لا ينكره إلا جاهلٌ أو مرتاب أو مظلم الفؤاد: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾،[24] ويرى المؤمن آثاره وشواهده عند تحققه، وما أكثر شواهدَه!

وقد أبلغنا الله أننا إن نصرْناه نصرَنا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾،[25] ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾،[26] وقد جعلنا بين أنفسنا ونصر الله مانعًا بحبّ الدنيا، والانشغال بحظوظها، والمنافسة على ركامها ومناصبها وامتيازاتها، وتأخيرِ الإعلان عن ترك هذه الحظوظ والانخراطِ في نصرة الله وحده. وقد علِمنا أن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، ودليل على اختلاط النيات والاضطراب في توجهاتها ومسارات انعقادها، فالله لا ينصر إلا من ينصره ويصدق في نيته، وإلا فإن النصر عمومًا قضية مادية تتعلق بالقدرات وموازنات المعركة. وقد علِمنا أنّ حبّ الدنيا قد استعبدَ نفرًا من المحسوبين علينا، وأصابهم بالحرص والشره وحبّ الظهور وظلم الأقربين وعدم الاستعفاء ممن ظلموه سابقًا، فلم يوفقهم الله لحسن التوكّل عليه، ولم يُعِنهم على صراطه المستقيم، فلا ينقضي تعبُهم، ولا يصفو عَيشُهم.

ومن أسباب تأخره هذا الخلاف الشديد والتناحر، وخذلان الأهل وترك نصرتهم، والانقسام الرأسيّ الذي تنساق له عامّة القاعدة المتحزّبة منهم، فيأبَى بعض الفرقاء المتنفّذين فيه أن يحسموه باتجاه الجبر والتنازل والعفو، وأن يقدّموا المجتهد الأصلح منهم، وأن يكونوا أمّة واحدة يجمعها هدفٌ شاغلٌ، وقد علِمنا أنّ النصر إذا اقترب في ظل الخلاف الناشب القويّ فإنه يزيد الشرّ بينهم، ويؤجّج الصراع، ويُفسِد ما بقي من الودّ بكبر الحسد. وهذا النصر قد يبدو لنا متأخّرًا لأنّ وجه هذا النصر لم يظهر كما شاءه الله لنا، وأنّ الله يريد أن يظهره

[24] الروم، 47/30.
[25] الحج، 40/22.
[26] محمد، 7/47.

لنا من غير الزاوية التي ننظر منها إلى وجه النصر، وقد يكون النصرُ مقبلًا علينا ونحن لا ندري وجهه.

وإذا تدبّرنا قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[27] فسنرى أن هناك «نصر الناس» ونستخدم لقياسه واعتباره المعاييرَ المادية، وهناك «نصر الله» الذي نرى ظواهره وتجلياته في حياة الناس.

والنّصر في أصل معناه ليس الغلبة على العدوّ، بل هو العون الحقيقيّ والإغاثة والنجدة، ويكون في هذا العون غلبة تَعْقبه إن شاء الله، وقد علِمنا أن عظم هذا النصر لكونه من الله، فهو الذي قدّر أسبابه، ووفق عبادَه إليه، وخرَق به العادة، إذ لم يكن مسارُ النصر على نمط متعارَف عليه مما جرت به العادة الحربيّة في الحوادث المماثلة. ونصر الله مقرون بنصرك له: «إن تنصروا الله ينصركم» فاعلم كيف تنصره ليبْلغك نصره.

والفتح في أصل معناه أن ينفتح لك المُغلَق، فتدخل عليهم هذا البابَ المنغلق باقتحام الثغور والمَحارس، إذ إنّ تحكّمك في المداخل والمنافذ والمخارج وانفتاحها لك وعليك يعني مقدمات الفتح الغالب. وإذا أخبر الله تعالى عن نصره لعباده فإن نصره متحقق بمجرّد الوعد به، فكيف وهو الكريم الناصر!

ومن الظواهر المتصلة بنصر الله أن تجد معه فتحًا لأمر أو محلّ كبير مغلَق، وأن تجد الناس في الأقطار البعيدة التي لم تنعَم بالإيمان، وتجد عامّة المسلمين الذين فارقهم التديّن تنفتح أبصارهم نحو هذا النصر اللافت المثير الذي يدعوها للإيمان بالله بالظهور العجيب والسُّمعة السائرة، فيدخلون في طاعته ويدينون بدين الله. ودخولهم في الدين أفواجًا يعني أيضًا أن أدوات النصر في أيديهم سيجعلونها في أيديكم، إذ إنهم في أول أمرهم يكونون في ذروة انفعالهم ولين قلوبهم وطواعية طباعهم، وسترى نصرهم ودعمهم رؤية يقينية وعينيّة «ورأيت الناس»، وسترى كل الناس الذين في بالك وغير بالك يجيئون أفواجًا وراء أفواج.

وإذا اشتدّت المصيبةُ النازلة، وظَهر للمرء عجزُه الكامل عن دفعها، وأن الحركة فيها لا تنفع، وأن القضاء لا يُردّ– فإن الباب الوحيد للنجاة من هول المصيبة هو باب اليقين. وللوقوف على عتبة باب اليقين يلزمك أن تدخل مسار الصبر، فتعزم في نفسك على الثبات، وتمتص الصدمة بهدوء النفس وسكون

[27] النصر، 110/1–3.

الجوارح وصمت اللسان إلا بالترجيع والحوقلة، وتنقطع عن التعلّق بالمخلوقين خوفًا ورجاءً، فلا تُعلّق عليهم شيئًا مِن وارد النفس ورغباتها، وتثق أنّ الأمر كله لله، ومنه سبحانه وإليه، وترضى بتدبيره الحكيم.

وهذا الباب لا يكاد ينفتح إلا في محكّ الإيمان إذا هجمت عليه المصيبة لتكسره، فيفزع المؤمن لهذا الباب فيستمدّ منه السكينة التي جعلها الله فيه. وإذا اكتمل يقين المرء شاهد البابَ أمامه حاضرًا يدخله كما يدخل أحدكم بيته، ثم يرتفع هذا الباب بالاعتياد والألفة، ويكون عليه مثل المَقام. وهذا الباب موجود حول كل إنسان، لكنّه خفيّ مستور لا يظهر لمن يتعلّق بالمخلوقين ويبحث عنهم، ولا يُحسّ بوجوده المتردّدون والشاكّون والغارقون في دنياهم المغموسة بالوجع أو البهجة. ولهذا كان من دعاء رسول الله عليه صلاة ربّي وسلامه: «واقسِم لنا من اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا»، والتهوين هنا ليس في التسهيل والتخفيف فحسب، بل إن اليقين يجعل المصيبات حقيرة في ذاتها وفي دائرة إصابتها وتأثيرها، فلا يلتفت لها ذو اليقين مهما عظمت واشتدّت.

والمؤمن على يقين أن الله لن يضيع أهلَه، فقد حمل أبو الأنبياء خليل الله إبراهيم زوجه هاجر وولده إسماعيل إلى وادٍ موحش ليس به زرع ولا ماء ولا إنسان، وتركها هناك مع طفلها الرضيع، فنادتْه مرارًا وهو مدبرٌ عنها لا يلتفت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء!، كان لا يجيبها، ولكنها لم تكن حائرة، فقالت لتستوثق: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم !، فنطقت بيقينها الثابت: إذن لا يضيعنا الله! واليقين الثابت ينمو بالسعي والعمل، ولا يعيش في الدعة والركون، ولمّا لم يبق في جرابها تمرٌ، ولا في سِقائها ماءٌ، كان ابنها يتلبّط من العطش، فطفقت تسعى في زوايا النظر الأعلى حولها بين التلّتين في الصفا والمروة سبعًا جيئةً وذهابًا.

وقد كان قلبها قد بدأ ينفتح على باب اليقين، فأسكتت جوعَها وعطشها ولهفتها وصراخ طفلها وشواغل جوارحها: صَهٍ! وتسمّعتْ فسمعت حينها، وصرخت: لقدْ أسمعتَ! وطلبت منه حاجة لحظتها: إن كان عندكَ غُوَاث! وكان غوث الله قد ظهر لها على صورة سيد الملائكة جبريل، فأجابها أولًا بفعلٍ لا بقول، إذْ ضرب الأرض بعَقِبه أو بجناحه ففارت الأرض، فجعلت تغرفُ في سقائها، وشَرِبت وأرضعت وليدها.

وناداها جبريلُ حينها قولًا وفعلًا ووعدًا: لا تخافوا الضَّيْعَةَ، فإنّ هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإنّ الله لا يضيع أهله، فعلِمت أن إبراهيم عائدٌ إليها، وأن المكان سيعْمر، وبدأت البركات بالماء الذي نادى عوافي الطير تطلب أقْواتَها

فدلّت الناسَ على الماء بحَوْماتها، فاستأذنوها أن ينزلوا عندها، فأذنت لهم، واحتفظت حينها بحق السيادة: لا حقّ لكم في الماء... وكان الإسلام الأوّل القديم!

وقد أرسلت إلى بعض مَن قُطِفت ثمرة فؤاده، وأُزهقت روح روحه رسائل في تثبيتهم كان منها: هذا النفرُ من المؤمنين إنما يجعل الله في قلوبهم السكينة، ويُبهر بهم عبادَه، وإذا حاولت الكشف عن أرواحهم الشفافة فسترى فيها هذا النداء الساري: يا ربّ! فيا ربّ إنها وديعتُك، نردّها إليك، فأنت صاحبُ الوديعة وأنت صاحب الأجل فيها! وإنها أمانتك الجميلة التي فرِحنا بمواهبك إلينا فيها، وكنا نعلم أنّها واجبة الأداء رغم ثقل ذلك علينا لشدّة ما اعتدْنا على حبّها والتعلّق بها والولع بالرجاء فيها والتزيّن بصحبتها.

وإننا قد شكرناكَ عندما وهبتَها، وصبرنا على قضائك وقدرك عندما أخذْتَها. وقد علّمنا رسولك إلينا أنّ عِظَم الجزاء من عِظَم البلاء، وأن البلاء قد يشتدّ، وما كان للمؤمن إلا أن يصبر ويرضى، وليس للمؤمن أن يتسخّط ويأبى، وإلا كان من المحرومين الساخطين الفاشلين في هذا الاختبار. ونعلم أنّنا إن عظُم تأسّفُنا على فوات المفقود فإنّ ذلك لا يَدْرَأ الموت عن الموجود، وليس لنا إلا أن ندعو بألّا تجدّد علينا الفجيعة، وأن ترزقنا ثبات الصبر وأجر الصابرين.

ونعلم أن القلوب تفْرغ من كبد الحزن، وكآبة الغمّ، ولا يعمر القلب الفارغ إلا تفويض أمرنا إليك والخضوع لحكمتك وارتقاب رحمتك وقبول رضائنا بقضائك. ونعلم أنّ أطفالنا كأفراخ طيور الماء التي لا تفارق بِركتها، وأن رسولك بشّرنا: بـ«أنّ صغارنا دعاميص الجنة، يتلقّى أحدهم أبويه فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بِصَنِفة [طرَف] ثوبك هذا، فلا يتناهى حتى يدخله الله وإيَّاه الجنة».[28]

ونعلم أنهم ينتظروننا على أبواب جنتك كما أخبر نبيّك في عزاء رجل فقدَ ولده: «ما تحبّ ألا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدتَه ينتظرك! فقال رجل: يا رسول الله! ألهُ خاصة أو لكلّنا؟ قال؛ بل لكلّكم».[29] ونعلم يا ربّاه أنّك تسأل ملائكتَك إذا قبضوا أرواح أطفال عبادِك الممتحَنين ببلائك وأنت العالم الخبير:

«قَبَضْتُمْ وَلَدَ عبدي؟ فيقولون: نَعَمْ!

فتقول: قبضتُم ثمرةَ فؤادِه؟ فيقولون: نَعَمْ!

فتقول: ماذا قال عبدي؟

---

[28] **مسند أحمد**، 220/16؛ **صحيح مسلم**، «البر والصلة»، 154.
[29] **مسند أحمد**، 473/33.

فيشهدون لنا أنّنا حمدناكَ، واسترجعنا، وأقررنا بأننا جميعًا راجعون إليك!

فأعطِنا وعدَك يا الله: ابْنُوا لعبدي بيتًا في الجنّة، وسمّوه بيتَ الحمد!»[30]

ولمّا عاد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه من أحُد، ودخل منازل بني عبد الأشهل كانت النساء تبكين مَن فقدنَ من أولادهنّ في أحد، فلما رأين رسول الله نظرنَ إلى سلامته -وهنّ في النوح- فجاءته أم عامر الأشهليّة، ورأت الدرع عليه، فقالت: كلّ مصيبة بعدكَ جَلَلٌ! وهرعت إليه أم سعد بن معاذ، وكان رسول الله على فرسه، وابنها سعدٌ آخذٌ بعنانه، فأخبر سعدٌ رسولَ الله أنها أمّه، فقال له رسول الله: مرحبًا بها! ودنتْ من رسول الله، وتأمّلته عن قرب، ثم قالت: أمَا إذْ رأيتكَ سالمًا فقد أشْوَت المصيبةُ؛ (أيْ هانت)!

ثم عزّاها رسول الله بابنها عمرو بن معاذ، وقال لها: يا أم سعد، أبشري وبشّري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا، وقد شُفِّعوا في أهليهم.

فقالت بثبات: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟!

ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لمَن خُلِّفوا منهم!

فقال عليه الصلاة والسلام: اللّهم أذهِبْ حزنَ قلوبهم، واجبُرْ مصيبتَهم، وأحسِن الخَلَف على من خُلّفوا!

ثم أمر رسول الله كل جريح أن يقرّ في داره، ويتداوَى ولا يلحق به إلى مسجده، وقال للجرحى: «... وليس فيهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون دم والريح ريح المسك...

عَضّة القَرْح!

دعني أُعِنْك على فهم السياق الحيويّ لهذه الآية: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[31]

انتهى الفصل الأول من معركة أُحد بمشهد انتصار قريش، وقد أُصيبَ رسول الله ﷺ، وشاع خبر مقتله، وارتقى العشرات من الصحابة، وأُصيبَ الكثير منهم بجراحات دامية، وقُروح صعبة، وكادت معنويات الناس تنهار حتى خرجت فئة من الصحابة من المعركة ظانّين أن رسول الله ﷺ قد مات. انسحبت قريش من أحد، وبدؤوا مسيرهم إلى مكة، فوصلهم نبأ نجاة رسول الله ﷺ، فقال بعضهم يتلاومون ويُراجِعون قائمة أهدافهم المرصودة لهذه الحرب المتمثِّلة في قتل

---

[30] **سنن الترمذي**، «جنائز»، 36.
[31] آل عمران، 172/3.

محمد وتشريد أصحابه وسبي نسائهم: «لا محمّدًا قَتلتُم، ولا الكواعبَ رَدَفْتم، بئسما صنعتم!»، وقال آخرون: «ما صنعنا شيئًا! أصبنا أشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصِلهم، قبل أن يكون لهم كرٌّ وفرٌّ».[32]

فوصلت المعلومات إلى رسول الله ﷺ، وترقّب أن يعودوا أدراجهم، ويستهدفوا المدينة، فأعلن التعبئة وسط الجروح والقروح، وقال: مَن يذهب في أثرهم؟ بلْ أمر ألا يذهب معه إلا مَن حضر المعركة بالأمس من الثابتين، فانتُدِب لملاحقة قريش سبعون من الصحابة الذين قادهم رسول الله ﷺ حتى حمراء الأسد.

وشحَن رسول الله ﷺ نفوس هؤلاء المقروحين الثابتين بوعدٍ مشفوع باليمين فيما سيحلّ على قريش إذا لقوهم: «والذي نفسي بيده، لقد سُوِّمَت لهم حجارةٌ لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمْسِ الذاهِب» -أي أنّ الله سيجعل عليهم علامات هلاكهم واحدًا واحدًا حتى يكونوا عدمًا- وتحرّق الأجناد للقاء قريش بمِثل النيران يومين.

وتيقّنت قريش أن رسول الله ﷺ قد استجمع قوته، وظنوا أنه جاءه مدد، «وقد حَرِبوا»، وقال بعضهم لبعض: نَرْجع من قابلٍ! -أي في السنة المقبلة-، ولمّا تأكد رسول الله ﷺ من أنهم اتخذوا طريق العودة وسلكوه عاد مع أصحابه الذين أثقلتهم القروح في صورة عزّ أقفل بها مشهد الهزيمة، وحوّل النهاية إلى نصر معنويّ.

وفي الآية مستويات ودرجات: فهناك درجة من أُصِيبَ بالقرح ومسّه فصبر على قدر الله ورضي بقضائه؛ وهناك درجة من أصابه القُرْح بعد القَرْح، ونالت منه الجراح وعضّة السلاح، فتحاملوا على أنفسهم، واستجابوا لمرجعياتهم، وامتثلوا للأمر، والتزموا بالنفير؛ وهناك درجة مَن أحسن في ذلك النفير، واتقى الله فيه حق تُقاه، فلم يتردّد للحظة في يقينه وكأنّ شيئًا لم يُصبه من قبلُ... ولكلٍّ درجات مما عملوا، ولمُحسِنهم الأجر العظيم من أول الصبر والرضا إلى فوريّة الاستجابة إلى إحسان الأداء.

4- الصبر بالله

وإذا قال لك أحدهم عند الشدائد: «صبرك بالله» فاعلم أنّه أخذ ذلك من كلام ربنا سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.[33]

---

[32] انظر: **سيرة ابن هشام**، 2/103-107، 2/121؛ **البداية والنهاية** لابن كثير، 4/48-52.
[33] النحل، 15/127.

فأَنْ تجعل صبرك بالله غير أن تجعل صبرك بنفسك، فوسيلتُك إلى الصبر هو الله تعالى، يوفقك إليك، ويهديك إلى التزامه والثبات عليه وعدم الانجراف وراء حزنك أو غضبك أو انفعالك. وأما إن جعلتَ الصبر بنفسك فوسيلتُك إليه ما تقوم عليه نفسُكَ مما عودتَها عليه، وجربتَها فيه. وهذا الاستثناء المفرّغ «إلا بالله» استثناء من أعمّ الأشياء، ويعني أن يكون صبرك مصحوبًا بذكر الله، والاستغراق في مراقبته، وخلوص الهمّة إليه، ويعني أن صبرك بمشيئة الله وإرادته المبنيّة على حكمةٍ بالغة وعاقبة حميدة وتسلية جميلة وتيسير قريب. وهذا مما يهوّن على المرء مشاقّ الصبر بما لا مزيد عليه

من المعاني المستورة في حديث «لا يضرّهم مَن خذلهم»،[34] أننا نعلم أن كثيرًا منا قد ضعف عن نصرتكم أهل غزة وفلسطين، وتخاذل عن دعمكم وإسنادكم، وجبن عن مشاركتكم، وقصّر في إمدادكم، وتأخّر في نجدتكم؛ ولكن اعلموا أن خذلاننا لا يضرّكم، وتقصيرنا لا ينقصكم، وتقاعسنا لا يؤخرّكم، فرسول الله صلوات ربي وسلامه عليه قد بشّر أمثالكم بنصر ربّه على أعدائكم، لأنه يكون معكم: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾،[35] وأحسب أنّ الله قد جمع فيكم التقوى والإحسان.

وقد وردت الإشارة إليكم في رواية الحديث الأخرى: «يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم»[36] فقد قاتلتم على أمر الله وشَرطه، وقهرتم عدوّكم يوم سبتهم السابع أمام أعين الناس أجمعين. وربّما فهم بعضنا أن قول سيدي رسول الله: «لا يضرهم من خذلهم» فيه نفيٌ لوقوع الضرر واللأواء، فقد فاته أن ما يفيد هذا المعنى إن كان قال: «لن يضرّهم»، وبما أنه قال: «لا يضرّهم» فهذا دعاء من رسول الله ألا يُضارّوا بسبب خذلاننا لهم، ورسولُ الله مجابةٌ دعوتُه في آخر المطاف بلا ريب. والضررُ الذي دعا لكم رسول الله ألا يقع عليكم هو ذاك الذي يؤثّر في ثباتكم، ويُضعِف من عزيمتكم، ويؤخّر المدد عنكم، وهي إشارة بأنّ العونَ قريبٌ، والغوثَ قادمٌ، وإن تأخر في الوصول إليكم.

وفي الحديث أيضًا أنه: «لا يضرّهم... مَن خالفهم»، فلا يضرّكم مخالفة نفرٍ من شعبكم لكم، ولا معاكسة الإقليم المكسور المحيط بكم، ولا تآمر الدول الظالمة عليكم، فامضوا على أمركم، ولا تبالوا بمعارضتهم، وإنكارهم، أو تسوية نضالكم بإجرام مَن تقاتلونهم، أو الافتراء عليكم بما ليس فيكم، ومن مأثور الصحابة: «الجماعة ما وافق الحقّ، ولو كنتَ وحدك».

---

[34] **صحيح البخاري**، «مناقب»، 28؛ **صحيح مسلم**، «الإمارة»، 170.
[35] النحل، 128/15.
[36] **صحيح مسلم**، «الإمارة»، 176.

وفي رواية لهذا الحديث أيضًا: «لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق» فالغَرْبُ هو الدّلو الكبير، فلعلها الدِّلاء العظيمة التي ترفعون بها أنقاض حفر أنفاق الأرض تحتكم، أو أنّ الكلمة على وجهها فأنتم في غرب الحجاز أو في غرب جزيرة العرب على حدّ بحرها الغربيّ الشماليّ، إذ إن جزيرة العرب لدى الجغرافيين القدماء تضمّ الشام والعراق أيضًا؛ أو أن الغَرْب هو الحدّة والشوكة، وأنتم أهل الشوكة حقًا، فاستبشروا بالظهور على عدوّكم! وقد وردت الإشارة أن هذه الطائفة التي وعدها رسول الله بالنصر هي بالشام أو أكناف الأرض ذات التقديس، وأنتم فيها، فكأنّ الإشارة تقترب منكم وتؤشّر عليكم.

5- **قواعد الثبات**

وإنّك إذا عزمتَ والتحمتَ مع عدوّك فلا تقف في منتصف الطريق، فإن كل دابة عابرة من الاتجاهين ستدهسك، وكلَّ صائحة ستُعوِّقك، فامضِ قاصدًا حتى تبلغ مقصدك! وإنكم ستجدون من يحبطكم، ويخوّفكم من الدم والدمار والأفعال المرتدّة، وسيأتيكم تارة بصوت الحكمة، وتارة بصوت الدعاية، وتارة بصوت مؤسسات دينية ملتوية، فلا تسلّموهم عقولكم، ولا ترخوا لهم آذانكم، وقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل!

وإن الله إذا دبّر أقداره فإنه يدبّرها على ما كسبته أيديكم ودبرتموه لأنفسكم، ويُجري الله أقدارَه بما تستحقّونه، وإذا رأى فيكم جدارةً فإنه قريبٌ منكم، يمدّكم بعون منه، يُغيّر به حالكم، ويدفع به عنكم.

وإنّ من عادة الأحوال أن تبدأ صغيرةً على تدبير بشريّ محسوب، ثم تدخلها أحوال غير محسوبة، فيكون معك مَن حاد عنك سابقًا أو خَذلك، ويأتيك مَدَدٌ لم تحتسبه أو تظنّه، وسترى كلّ يوم ما يثبّتك، ويعينك، ويفرح به فؤادك. وإنّ مدخل التوكّل هنا أن تفوّض أمرك كله لله، وأن تضع بين يديه كل ما تملك، وأغلاهم نفسك، ومَن أحببتَ من أهلك، واسأله أن يحفظهم بما وهبتَهم من نفسك له، واستلِف من روحك لأرواحهم، واصبر حتى يأذن الله.

الخاتمة

هذا البحث ليس نتيجة دراسة بحثيّة عاديّة؛ بل نتيجة مدارسة ميدانية تجريبية عايشت الواقع بكل تداعياته وظروفه، وربطَتْه بالقيم والمعاني التي نتلوها في كتاب الله، ونتداولها في السنّة النبوية وأحداث السيرة؛ وقد أظهرت لنا أن كثيرًا

من هذه المعاني التي كنا نلقّنها للناس إنما تبرز وتتضح عندما تتنزّل للناس في غمرة الحدث.

وقد ظهر لنا أن هذه القيم ذات أثر عميق في تثبيت الناس وتصبيرهم في مواسم النوازل العظيمة، وأنّه من الواجب على أهل العلم أن يقتربوا أكثر من حياة الناس، وأن يستلهموا القيم الدينية من النصوص الشرعية وسياقاتها، وأن يبحثوا عن أنجع السبل لبثّها في أحوالهم كافّة، وأنّ في هذه القيم العميقة الكثير مما تحتاج إليه هذه الأمم والشعوب المكلومة لترميم أوضاعها النفسية المضطربة، واستئناف مسار حياتها، ونهضتها من جديد.

وقد أوضح لنا هذا البحث أن ثمّة مفاهيم قدَريّة عديدة كانت الناس تؤمن بها في عمومها، من دون تفصيل في زمان الرخاء، لكنّ هذه المفاهيم تتعرض للتجريف النفسيّ في زمان الفتنة والشدّة، وقد تتحوّل إلى شكوك قاتلة؛ وتؤسس لانحراف فكريّ وعقلي ونفسي، وهذا يتطلب تدخلًا عاجلًا يبيّن الحكمة الإلهية في أقدار الله خيرها وشرّها، ويشرحها بما يدفع نحو الثبات واليقين.

المصادر والمراجع

– **البداية والنهاية؛**

ابن الكثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي الشافعي (ت. 774هـ/1373م).

دار الفكر، بيروت، 1986م.

– **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه؛**

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت. 256هـ/870م).

تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ.

– **سنن أبي دواد؛**

أبو دواد، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت. 275هـ/889م).

تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد كامل، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2009م.

– **السيرة النبوية؛**

ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام الحميري المعافري (ت. 218هـ/833م).

تحقيق: مصطفى السقاء – إبراهيم الأبياري – عبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي، مصر، 1955م.

- **شعب الإيمان؛**

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت. 458هـ/1066م).

تحقيق: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، رياض، 2023م.

- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية؛**

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت. قبل 400هـ/1009م)،

تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

- **المسند؛**

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروذي (ت. 241هـ/855م).

تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م.

- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛**

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت. 261هـ/875م).

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

Bibliyografya

Ahmed b. Hanbel, Ebû Abdullah Ahmed b. Muhammed b. Hanbel eş-Şeybânî el-Mervezî, *el-Müsned*, thk. Şuayb el-Arnaût – Âdil Mürşid, Beyrut: Müessesetü'r-Risâle, 2001.

Beyhakî, Ebû Bekir Ahmed b. Hüseyin b. Ali, *Şu'abü'l-îmân*, thk. Muhtâr Ahmed en-Nedvî, Riyâd: Mektebetü'r-Rüşd, 2023.

Buhârî, Ebû Abdullah Muhammed b. İsmail el-Cu'fî, *el-Câmi'u'l-müsnedü's-sahîhu'l-muhtasar min ümûri Resûlillâh sallallâhu aleyhi ve sellem*

ve sünenihî ve eyyâmih, thk. Muhammed Züheyr b. Nâsır en-Nâsır, Dâru Tavki'n-Necât, 1422.

Cevherî, Ebû Nasr İsmail b. Hammâd, *es-Sıhâh Tâcü'l-luga ve sıhâhu'l-Arabiyye*, thk. Ahmed Abdülgafûr Attâr, Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-İlmiyye, 1987.

Ebû Davud, Süleyman b. Eş'as es-Sicistânî, *Sünenü Ebî Dâvûd*, thk. Şuayb el-Arnaût – Muhammed Kâmil, Beyrut: Dâru'r-Risâleti'l-Âlemiyye, 2009.

İbn Hişâm, Ebû Muhammed Cemâlüddin Abdülmelik b. Hişâm el-Himyerî el-Me'âfirî, *es-Sîretü'n-nebeviyye*, thk. Mustafa Sekkâ – İbrahim el-Ebyârî – Abdülhafîz eş-Şelebî, Mısır: Matba'atü Mustafa el-Bâbî, 1955.

İbn Kesîr, Ebü'l-Fidâ İmâdüddin İsmail b. Ömer ed-Dımaşkî eş-Şâfiî, *el-Bidâye ve'n-nihâye*, Beyrut: Dâru'l-Fikr, 1986.

Müslim b. Haccâc, Ebü'l-Hüseyin Müslim b. Haccâc b. Müslim el-Kuşeyrî, *el-Müsnedü's-sahîhu'l-muhtasar bi-nakli'l-adl ani'l-adl ilâ Resûlillâh sallallâhu aleyhi ve sellem*, thk. Muhammed Fuâd Abdülbâkî, Beyrut: Dâru İhyâi't-Türâsi'l-Arabî, ts.